الباب الثاني

طَرَفَة الشاعر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

رواية شعره وتدوينه

١

ديوانه

طبع ديوان طرفة عدة طبعات، أقدمها طبعة المستشرق الألماني وليم آلوارد (WAhlwaralt) في لندن سنة ١٨٧٠ م، في مجموعة العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين، وهي دواوين امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة، برواية الأصمعي. وقد شرحها الإمام أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري، المعروف بالأعلم، المولود سنة ٤١٠، والمتوفى بأشبيلية سنة ٤٧٦ هـ. غير أن آلوارد جرّدها من الشرح، وأضاف إليها أشعاراً أخرى مما وجده في كتب الأدب والتاريخ منسوباً إلى كل من هؤلاء الشعراء الستة.

ثم نشر لويس شيخو كل ما وقف عليه من شعر طرفة سنة ١٨٩٠ في مجموعته «شعراء النصرانية»، معتمداً على نشرة آلوارد.

وكذلك نشره مصطفى السقا في مجموعته «مختار الشعر الجاهلي»، وهذه المجموعة هي مجموعة الدواوين الستة نفسها التي عُنِيَ بشرحها الأعلم الشنتمري، إلا أن مصطفى السقا لم ينقل شرح الشنتمري برمته، بل اختصره، وتخيّر منه كثيراً من الإشارات والتعليقات.

obeikandl.com

وفي سنة ١٩٠٠ طبع ديوان طرفة في فرنسا بعناية المستشرق الفرنسي سلغسون (Max Seligsohn) الذي قام بجمع شعره، وطَبْع ديوانه بشرح الأعلم الشنتمري، وأتبعه بتعليقة وذيل، ذكر فيهما كل ما وجده في المخطوطات والكتب منسوباً إلى طرفة، سواء أصحت نسبته إليه أم لم تصح، فاجتمع له من ذلك ٦٣٩ بيتاً، ترجمها إلى الفرنسية، وعلّق عليها، وقدّم لها مقدمة تاريخية عن الشاعر وبيئته.

وفي سنة ١٩٠٩ طُبِع ديوان طرفة بمدينة قازان في روسيا، من نسخة برواية وشرح أبي يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السكيت، المتوفى سنة ٢٤٤ هـ. وقد زاد في شرحه المرحوم الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي، المتوفى سنة ١٣٣١ هـ، مشيراً إلى شرح ابن السكيت بقاف، ومنبّهاً على ما لم يروه الشنتمري في شرح الدواوين الستة.

وفي سنة ١٩٥٣ أصدرت دار صادر ببيروت طبعة لديوان طرفة، اختلطت فيها قصائد الديوان الأصلي للشاعر بما نسب إلى طرفة من شعر، من غير إشارة إلى ذلك، ولا تحقيق في صحة نسبته إليه، ولم تتقيد في شروحها بشرح بعينه.

وفي سنة ١٩٥٨ نشر الدكتور علي الجندي ديوان طرفة في القاهرة بعنوان: «ديوان طرفة بن العبد تحقيق وتحليل ونقد» جمع بين دفتيه شعر طرفة برواية الأصمعي ورواية ابن السكيت وغيرهما، مما وقع عليه من روايات ثانوية، وشعر منسوب إلى طرفة، فاجتمع له ٧٣٣ بيتاً، رتّبها حسب القوافي ترتيباً هجائياً، وقسم الديوان إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول ضمّنه قصائد الديوان ومقطّعاته، والقسم الثاني ضمّنه القصائد والمقطّعات والأبيات المنسوبة إلى طرفة، والقسم الثالث ضمّنه دراسة أدبية لما في القسمين من أشعار.

وفي سنة ١٩٧٥ أعاد طبع ديوان طرفة بشرح الأعلم الشنتمري مجمعُ اللغة العربية بدمشق، بعناية الأستاذين لطفي الصقال وزوجه درّيّة الخطيب، وقد أثبتا فيه ما رواه الأصمعي لطرفة وشرحه الأعلم، وما رواه وشرحه ابن السكيت، وما ألحقه الدكتور علي الجندي من زيادات، وزادا عليها (٧٥) بيتاً، وقعا عليها فيما نسب إلى طرفة من شعر، فات الدكتور الجندي إثباته، وقد رتّبا الزيادات جميعاً بحسب القوافي، وألحقاها بالديوان.

يتبين لنا مما تقدم أن لدينا نسختين أصليتين مطبوعتين من ديوان طرفة بن العبد، إحداهما برواية الأصمعي البصرية التي احتفظ بها الأعلم الشنتمري في شروحه للدواوين الستة، والأخرى برواية ابن السكيت الكوفية.

وتمتاز الأولى بالتشدد والتقليل من الرواية، على حين تميل الثانية إلى التساهل والتكثرّ في الرواية؛ فالأصمعي لم يرو لطرفة سوى ثماني عشرة قصيدة ومقطّعة، في حين يروي له ابن السكيت ثمانياً وعشرين قصيدة ومقطّعة، أنكر بعضها نفر من أئمة الرواية، كالقصيدة (٢٢)، ومطلعها:

أَلا اعْتَزليني اليَومَ يا خَوْلُ أَوْ غُضّي فقد نَزلَتْ حَدْباءُ مُحْكَمةُ العَضِّ [1]

فَقد أنكرها المفضّل، ولم يثبتها الأصمعي.

ومن ثَمّ اتخذت من الرواية البصرية أساساً، أقمت عليه دراسة طرفة، وأضفت إليه من الرواية الكوفية القصائد التي يظهر أنها صحيحة النسبة لطرفة، إذ لم ينص أحد من الرواة الثقات على أنها منحولة.

أما القصائد التي نص الرواة على وضعها وانتحالها، أو شكّوا في نسبتها لطرفة، فقد أسقطتها من حسابي، ولم أعوّل عليها في استقراء خصائص الشاعر الفنية والنفسية، أو الاستدلال بها على حياته، وكذلك القصائد التي تظهر فيها أمارات الوضع كالقصيدة السابعة في رواية ابن السكيت، ومطلعها:

مَنْ عـائِدي الليلةَ أمْ مَنْ نَصيحْ بِتُّ بِهَـمٍّ فَـفُـؤادي قَـرِيـحْ

فقد ورد في هذه القصيدة هذا البيت:

لمـا رأيتُ الشَّيْبَ قـد راعَني والـشيـبُ والله معـاً والـقـبـوحْ

وفي هذا البيت شكوى من الشيب، لا تصدر عن شاب قتل في ميعة صباه وريعان شبابه، ويؤيد ما ذهبت إليه ما نقله السيوطي عن أبي عمرو بن العلاء من كتاب «فضل الشبان وتقديمهم على ذوي الأسنان» من أن طرفة مات في ريّق شبابه

---

(١) حدباء: شدّة.

وربيع عمره، ولذلك لم يذكر في شعره الشيب ولا بكى عليه[1].

هذا فضلاً عما ناء به البيت من ركّة لا يسفّ إليها شاعر مثل طرفة.

وكذلك القصيدةالسادسة في ديوانه برواية ابن السكيت، فقد خلت من الماء والرونق، وعريت من كل مقوّمات الشاعرية التي عُرف بها طرفة في معناه ومبناه، وأغلب الظن أنها من الغثاء الذي نُسِب إليه، وأنكَره ابن سلام[2].

ذلك أن الحذر في قبول النصوص، وتقصّي صحة نسبتها إلى الشاعر قدر المستطاع، يعصمان الدارس من الخطأ في الاستنتاج، ويتيحان له الوصول إلى نتائج قويمة، تستند إلى أساس متين.

(١) شرح شواهد المغني: ٢٧٢.
(٢) انظر طبقات فحول الشعراء: ٢٦.

obeikandl.com

٢

ضياع شعره وانتحاله

قضية الانتحال في الشعر الجاهلي قديمة، نبّه عليها القدماء، وبذلوا جهوداً كبيرة في نفي الزيف عن الشعر الجاهلي، وفرز الصحيح منه مما وضعه الوضّاع، متخذين إلى ذلك مقاييس وقواعد كثيرة.

وقد بلغ من حرصهم على تصفية الشعر الجاهلي مما لحقه من زيف أن ثقاتهم أهملوا كل ما روي عن المتهمين بالوضع والتزييف.

ومن أبرز الرواة الأعلام الأثبات، المهتمّين بتنقية الشعر الجاهلي وتصحيحه ابن سلام، وكتابه «طبقات فحول الشعراء» أول كتاب أثار قضية الانتحال، وعالجها بإسهاب ورويّة وحصافة..

ولقد كان لطرفة بن العبد نصيب من اهتمام ابن سلام، إذ نظر إلى شعره الصحيح فوجده قليلاً، ونظر إلى مكانة قائله فوجدها في الذروة من الشهرة والتقدمة. وأدّى به نظره الفاحص الناقد إلى القطع بأن معظم شعر طرفة الجيد قد ضاع، ولو كان ما سلم له من شعر هو كل شعره، لما كان مع الفحول، أما ما ينسب إلى طرفة من شعر ركيك ضعيف تافه، فما كان ليرقى بقائله إلى المرتبة التي تبوّأها طرفة على أفواه الرواة.

يقول ابن سلام: «وهم أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخلّ بهم قلةُ شعرهم بأيدي الرواة: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن

مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبه، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عَبَدة، وعدي ابن زيد.

فأما طرفة فأشعر الناس واحدة، وهي قوله:

لِخَـوْلَـةَ أَطْـلالٌ بِبُـرْقَـةِ ثَهْمَـدِ وقَفْتُ بِها أَبْكي وأَبْكي إلى الغَدِ[1]

وتليها أخرى مثلها، وهي:

أَصَحَـوْتَ اليومَ أَمْ شـاقَتْكَ هِـرْ ومِنَ الحُبِّ جُنـونٌ مُسْتَـقِـرْ[2]

ومن بعدُ له قصائد حسان جِياد»[3].

وواضح أن ابن سلام بعد أن تحدث عن قلة شعر طرفة بأيدي الرواة، أثبت له قصيدتين، سماهما، وقصائد لم يسمها، ووصفها بأنها حسان جياد.

وقال أيضاً: «ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه، قلّةُ ما بقي بأيدي الرواة المصحّحين لطرفة وعَبيدٍ اللّذين صحّ لهما قصائدُ بقَدْر عشرٍ. وإن لم يكن لهما غيرُهنّ، فليس مَوضعُهما حيث وُضِعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يُرْوَى من الغُثاء لهما، فليس يستحقّان مكانهما على أفواه الرواة. ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلامٌ كثير، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر. وكانا أقدم الفحول، فلعلّ ذلك لذاك. فلما قلّ كلامُهما، حُمِلَ عليهما حَـمْلٌ كثير[4].

ونقل ابن قتيبة في صدر ترجمته لطرفة ما قرره ابن سلام، فقال: «وهو أجودهم طويلة، وهو القائل: لِخَولةَ أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمَدِ، وله بعدها شعر حسن، وليس عند الرواة من شعره وشعر عَبيد إلا القليل».

أما ابن رشيق، فعدّ طرفة من المقلّين في الشعر، لأنه قتل صغيراً، ولم يشر إلى ضياع شعره[5].

---

(١) هكذا روى ابن سلام عجز البيت. وفي رواية الأصمعي: «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد».
(٢) أي ثابت دائم قد استقر في صاحبه لا يتحول. ورواية الديوان: «مُسْتَعِرْ».
(٣) طبقات فحول الشعر: ١٣٧، ١٣٨.
(٤) المصدر السابق: ٢٦.
(٥) العمدة ١/١٠٢.

وأورد الجاحظ خبرين يدلاّن على ضياع شعر طرفة، الأول قوله: «وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث، وذلك أنا إذا قِسْنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما، لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية»[1].

فلطرفة إذاً شعر جيد، قاله حين أحاط به الموت، وهو لا يقل جودة عن شعره في حال الأمن والرفاهية، وليس في ديوانه قصيدة أو مقطّعة واحدة، يرثي بها نفسه، أو يذكر أنه ملاقٍ الموت بعد قليل، فهو إذاً من الشعر الذي ضاع.

وأما قول الجاحظ الثاني: «ومن الشعراء من يُحْكِم القريض، ولا يحسن من الرجز شيئاً، ففي الجاهلية منهم: زهير، والنابغة، والأعشى. وأما مَنْ يجمعهما، فامرؤ القيس، وله شيء من الرجز، وطرفة، وله كمثل ذلك، ولبيد، وقد أكثر[2].

فقول الجاحظ هذا يدل على أن لطرفة شيئاً من الرجز. ولو استعرضنا ديوانه بروايتيه البصرية والكوفية، ما وجدنا له قصيدة واحدة، أو مقطّعة من بحر الرجز. وفي هذا دليل قاطع على أن أشعاره في الرجز قد ضاعت أيضاً.

هذا ما نوّه به القدماء من ضياع شعر طرفة والحمل عليه.

أما المحدثون، فقد شك منهم الدكتور طه حسين في شعر طرفة شكاً جعله يرى أن الذي جمع بين طرفة والمتلمس فيما رُوِي لهما من أخبار وشعر، إنما هو القصص، وأن قصة وفادته على عمرو بن هند، وما رُوِيَ في ثناياها من أشعار وحوادث أدت إلى مقتله أسطورة لهج بها الناس منذ القرن الأول للهجرة، وهم يختلفون في روايتها اختلافاً كثيراً. ثم وقف عند القصيدتين اللتين أثبتهما ابن سلام لطرفة، وتخيرّ قصيدة ثالثة من ديوانه، وهي التي قالها في يوم تحلاق اللّمم، وأدار حديثه حول هذه القصائد الثلاث، فرأى أن ما اتصف به شعر طرفة في معلقته، من متانة في اللفظ، وغرابة، تجعله أشبه ما يكون بشعر المضريّين منه بشعر الربعيين، قوم طرفة، فكيف شذّ طرفة عن شعراء ربيعة جميعاً، فقوي متنه، واشتد أسره، وآثر الإغراب ما لم يؤثر أصحابه، ودنا شعره من شعر المضريين؟!

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٦٨، والحيوان ٧/١٥٧.
(٢) البيان والتبيين ٤/٨٤.

ثم يقول: دع وصف الناقة، واقرأ أبياته في الفخر، فسترى فيها ليناً ولكن في غير ضعف، وشدّة ولكن في غير عنف، وسترى كلاماً، لا هو بالغريب الذي لا يفهم، ولا هو بالسوقي المبتذل، ولا هو بالألفاظ قد رصفت رصفاً دون أن تدل على شيء.

ويمضي الدكتور طه في دراسة القصيدة، مستعرضاً الأبيات التي يصف فيها طرفة مذهبه في اللهو واللذة، ويستظهر منها شخصية قوية، اتخذت لها في الحياة مذهباً جلياً واضحاً، هو مذهب اللهو واللذة، وإنه ليراها شخصية بارزة قوية، ليست متكلفة أو منحولة أو مستعارة، وهي ظاهرة البداوة، واضحة الإلحاد، بيّنة الحزن واليأس والميل إلى الإباحة في قصد واعتدال.

ويعود إلى شكّه الذي اتخذه منطلقاً في بحثه، فيقول: هذه الشخصية تمثل رجلاً فكّر والتمس الخير والهدى، فلم يصل إلى شيء، وهو صادق في يأسه، صادق في حزنه، صادق في ميله إلى هذه اللذات التي يؤثرها، ولست أدري أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر؟

ويزيده شكّاً أن هذا الشعر لا يشبه شعره في وصف الناقة، ويرجح أن شعره في وصف الناقة صنعه علماء اللغة، وشعره في وصف اللذات شعر صدر عن شاعر، ولكنه لا يأمن أن يكون فيه ما دسّ عليه ونُحِله نحلاً. أما هذا الشاعر، فلا يدري أهو طرفة أم غيره؟ بل لا يدري أجاهلي هو أم إسلامي؟ وكل ما يعرفه عنه هو أنه شاعر بدوي ملحد شاكّ!

ولم يقف عند القصيدتين الأخريين، لأن شخصية الشاعر فيهما تستخفي استخفاء، ولأنهما من الشعر الذي يمثل مجد القبيلة وفخرها القديم. وأكبر ظنه أنهما وضعتا في الإسلام تخليداً لمآثر بكر بن وائل[1].

وما أكثر الردود التي انصبّت على الدكتور طه حسين في هذا الجانب من الموضوع، وكلها إجماع على أن متانة اللفظ وغرابته، ولينه وقرب معناه، إنما هو شيء تابع للموضوع الذي يطرقه الشاعر، فإذا ما وصف الناقة والطريق الحزن

---

(١) انظر الأدب الجاهلي: ٢٢٦ ـ ٢٣٠.

الذي تقطعه، ركب متن الغريب، وأوغل في الحوشي البعيد. وإذا ما لامس الموضوعات المتصلة بالنفس والوجدان، فاضت قريحته بالمأنوس اللين السمح الرقيق.

أما شكه في شخصية الشاعر الذي قال هذا الشعر، فلا معنى له، بعد أن سلّم بأن الرّوّاد الأُوَل من الرواة المحقّقين، وهم أول المنبّهين على الانتحال في الشعر الجاهلي، كابن سلّام وغيره، أثبتوا شخصية طرفة إذ ذكروا أنه من أقدم الفحول. وابن سلّام، وإن عدّ طرفة من الذين حمل عليهم حَمْل كثير، أثبت له قصيدتين وقصائد حِساناً جياداً.

فشكّ الدكتور طه في أشعار طرفة وشخصيته جملة واحدة، كما هو شأنه في شكّه في الشعر الجاهلي عامة، لا يقوم عنده على أساس علميّ وطيد، وإنما هو من قبيل الزعم والادّعاء والافتراض، ومجاراة من سبقه في هذه الشنشنة من أساتذته المستشرقين.

وممن أشار إلى الانتحال في شعر طرفة مصطفى صادق الرافعي في كتابه «تاريخ آداب العرب»، إذ قال: «لم ينص أحد على مقدار ما صحت به الرواية عن طرفة، إلا أن بعضهم ذكر أن ما يصح من ذلك أحد عشر شعراً، فلا يميز من المنحول في شعره إلا القليل، وإلا ما جاءت بسببه رواية من الروايات، كبعض القصائد التي نسبها له حماد. غير أن طويلته من شعره الذي لا خلاف في نسبته، وإن كانت لا تخلو من تهذيب الرواة وزيادتهم فيها، وهي التي فضّله الناس بها، وجعلوها واحدته، وقالوا فيه من أجلها: إنه أجودهم طويلة»[1].

وواضح أن مصطفى صادق الرافعي كان في كلامه على الانتحال في شعر طرفة متنبّهاً إلى مسؤولية الكلمة في هذا الموضوع الشائك الخطير، حذراً من أن يميل مع الإثبات أو النحل كل الميل، منصفاً في تقرير ما يجب قبوله مما أجمع على قبوله الرواة الأثبات، وردّ ما جاءت بردّه رواية من الروايات، كبعض القصائد التي نسبها له حماد.

---

(١) ٣/ ٢٢٥.

ذلك أن حماداً كان متهمًا في روايته، مشهوراً بنحل القصائد لغير أصحابها، وله في ذلك حوادث وعتها كتب الأدب، منها ما ذكره السيوطي في كتابه المزهر[1]، من أن أعرابياً جاء مجلس حماد، فأنشده قصيدة لم تُعْرَف، ولم يَدْرِ لمن هي، فقال حماد: اكتبوها، فلما كتبوها، وقام الأعرابي، قال: لمن ترون أن نجعلها؟ فقالوا أقوالاً، فقال حماد: اجعلوها لطرفة.

إن هذا الخبر وأمثاله[2] ليعزّز ما حكاه ابن سلام على شعر طرفة وعَبيد: «ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر. وكانا أقدم الفحول، فلعلّ ذلك لذاك، فلما قلّ كلامُهما حُمِلَ عليهما حَمْلٌ كثير»[3].

ونخلص إلى القول: إن الحَمْل على شعر طرفة قديم، وهو حَمْلٌ كثير، كما قرر ابن سلام، أعان عليه كثرةُ ما سقط من شعره وضاع، ولقد رأينا أن حماداً فكّر مليّاً فيمن ينحله القصيدة، ثم قال: اجعلوها لطرفة، وكأنه نظر إلى قلة شعره فرآه قابلاً للزيادة، ورأى أن الزيادة المنحولة تكون فيه أخفى منها في الشعر الكثير.

على أن هذا كلّه لن يحملنا على رفض شعر طرفة كلّه كما فعل طه حسين، بل ينبهنا إلى ضرورة تقصّي الصحة في رواية أشعاره، وتحرّي الدقة في قبول ما وصلنا منه، وبذلك نسلم من الشطط في دراسته وتقويم فنّه، ونكون أكثر علمية فيما نصل إليه من نتائج وأحكام.

ويبقى شعر طرفة القليل، وبخاصة الذي وصلنا من طريق الرواية البصرية، موضع ثقتنا وقبولنا، نقبل على دراسته مطمئنين إلى صحة نسبته لطرفة.

ومما يعزز ثقتنا بهذا الشعر القليل، أنه كان في تاريخنا الطويل من الشعر الموثَّق الذي عوَّل عليه اللغويون في الاستشهاد على كلام العرب. وحسبنا أن نعلم أن المبرّد استشهد بشعر طرفة ثماني عشرة مرة في كتابه الكامل، وأن صاحبَيْ لسان

---

(١) ٢/ ٤٠٦ (ط عيسى البابي الحلبي).
(٢) انظر المزهر أيضاً ١/ ١٧٦.
(٣) طبقات فحول الشعراء: ٢٦.

العرب وتاج العروس استشهدا بشعره أربعاً وستين ومئتي مرة[1]، وغير هؤلاء كثير من علماء اللغة والأدب، فاضت كتبهم بالاستشهاد بشعر طرفة، ولم يظهر فيهم على مدى القرون مَنْ ردّ شعر طرفة جملة، أو شك في شخصية قائله، على النحو الذي رأيناه في دراسات بعض المحدثين وأساتذتهم من غلاة المستشرقين.

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية (طرفة).

obeikandl.com